الحلقة الثالثة

يوسف الصديق فى بيت عـزيز مـصر

العـزيز يوصـى امـرأته بيـوسف

المـرأة تـراود يـوسف عـن نفسـه

العزيز يتبين الحقيـقة بفـحص القمـيص

الآيات القرآنية التى صيغ منها شعر الحلقة الثالثة

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾ .

أشعار الحلقة الثالثة

يـا ويـحَ إخـوة يـوسـف صـاروا قـسـاةً ظـالـمين ١
قـد أجرمـوا فـى حقّه ، كـانـوا لـسـوءٍ عـامديـن ٢
الحـقدُ أعـمـاهـم فضـلـوا عن طـريقِ الـراشديـن ٣
بـاعوا أخـاهم بـالدراهـمِ ، وَهْوَ نسـلُ الأكرمـين ٤
قـد واصـلَ التـجـارُ رحـلتَهـم لمـصـر قاصـديـن ٥
ذهبـوا بيـوسفَ نـحو مصـر لموطـنِ المتـحضـرين ٦
وهـنـاك فـى سـوقِ الـرقيـقِ يُحـاط بالمـتـعـجبـين ٧
لـقد اشـتـراه عـزيزُ مـصـرَ من الـرجال الجـالبـين ٨
فـى بـيـته أوصـى بـه زوجاً لـهـا طـبـعٌ مـشـين ٩
مـن قولـه : فـلتـكرمـى مـثواه إكـرامَ الـبنـين ١٠
فـعـسَاه يـنفـعُنـا إذا صرنـا شـيـوخاً طـاعـنـين ١١
فـلـنـتـخـذْه لـنـا ولـيـداً وارثـاً كـالـوراثـين ١٢
بيـتُ العزيزِ قـد احتواه ، فعـاش عيشَ المتـرفين ١٣
قد مـكَّن المولـى ليوسـفَ ، صار فـى أمْنٍ أمين ١٤
أعطـاه ربُّ العـرشِ فضـلاً ، نعِمَ ربُّ الـعالـمين ١٥
أعطـاه تأويـلَ الحديـث ، غدا بـه فى المـرسَلين ١٦
ربُّ السـماءِ أرادَ بـالصـديقِ خـيراً ، عـن يقـين ١٧
للـمجـد يصعـدُ بالـبلاء ، قـضاء خيـرِ الخالـقين ١٨
مـا شاءه المـولى يـكونُ ، بـرغمِ كُرْهِ الـكارهـين ١٩
هـو غالـبٌ فى مـلكه والـنـاسُ ليـسوا غـالبـين ٢٠
قد شبَّ يـوسفُ واستوى مثـل الشباب البـالغين ٢١
أعـطـاه ربُّ العـرشِ حُسـنـاً صار وضَّاءَ الجبـين ٢٢
بـل زاده فـضـلاً فـأصبـح فـى عداد المـرسَلـين ٢٣
زوجُ الـعزيـزِ تحـبّهُ مـن نوع حـبِّ الـفـاسقـين ٢٤
صـارت تـنـاجـى نـفـسَهـا فـى حبّه كـالـحـالـمين ٢٥
الـذئـبُ فى أعـمـاقِهـا يـعـوى عُواءَ الجائـعـين ٢٦

مـن أجـلِ هـذا قـررت أمـراً بـتـدبـيـرٍ مـتـين ٢٧
هـمتْ تـنـفـذُ خطـةً من وحـى إبلـيسَ الـلعـين ٢٨
فـى مـخدعٍ قـد هـيـأتْهُ إلى لـقـاء الـعاشـقـين ٢٩
نادت عـلى الـصديـقِ أقبـلَ مسـرعاً كـالخادمـين ٣٠
نـادتْه والثـوبُ الرقـيقُ يـشفُّ عـن جسـدٍ فتـين ٣١
قـد أغـلـقتْ أبـوابَهـا مـنْعـاً لـكل الـقـادمـين ٣٢
كانـت تظـنُّ بأن يـوسفَ كـالرجـالِ الفـاسقـين ٣٣
مـا أن تشـير إلـيـه ، يأتـيهـا مـجيءَ الـراغبـين ٣٤
لـكـنّ يوسـفَ كـان عـفّا مـن سُلالةِ صـالحـين ٣٥
قالت : فإنـى «هيت لك» أقبِلْ وكن فـى الآمنين ٣٦
أقـبلِ فـإن الشـوقَ يغـلبـنى إلـيكَ مـع الحنـين ٣٧
فـأجـابهـا فـوراً « مـعـاذَ الـله » ربِّ الـعـالمـين ٣٨
لا ، لسـتُ خَوَّاناً ، فهـذا من صـفات الخائـنين ٣٩
لا ، لن أخونَ لسيدى ، قد كانَ لى فى المكرمين ٤٠
إن الخـيـانةَ دون شـكٍّ مـن صـفـاتِ الظـالمـين ٤١
والـظالمـون فلـن يكـونـوا فى عـدادِ المفـلحـين ٤٢
هـمت لـتـأخذَه ، أبَى ، فـى عـفـةِ المتـبـتـلين ٤٣
لـما أبىَ فـقدتْ صـواباً ، أصـبحـت كالـذاهلـين ٤٤
جرُحـت كرامتُها فـصارت كالـوحوشِ الكاسـرين ٤٥
بالـضربِ قـد آذته ، هـم بمنـعهـا كى تـستـكين ٤٦
أبتِ الـتراجـعَ هم يضـربُها ، رأى الـنور المـبين ٤٧
فـلقـد رأى الـبـرهانَ فـى أعـماقه ، هـذا يقـين ٤٨
معـناه ، إن تضربْ زلـيخا ، نالـك الغمز المـبين ٤٩
فـلتـصبـرنّ علـى أذاهـا ، لاتكـنْ كالجـاهلـين ٥٠
هى دون شكٍ من ذواتِ النقـصِ فى عقل ودين ٥١
فاصبـرْ كصبرِ الأنبيـاء ، فقد غدوْا في الخـالدين ٥٢
ولأنـتَ ذو عقـلٍ رجيـحٍ ، فى عـدادِ المرسَلـين ٥٣
ذاكم هـو الـبـرهانُ فى الأعـماقِ ، رؤيـا المتـقين ٥٤
ولنـصرفـنّ الـسوءَ والفـحشـاءَ عنـك لتـستـبين ٥٥

إذ أنت صفوتُنا سُلالة أنبياءٍ مخلصين ٥٦
لما تحققَ يوسفٌ من ذلك النصحِ الأمين ! ٥٧
من ثَم ولّى هارباً ينجو من البطشِ المهين ٥٨
أختُ الفجورِ وراءه تعدو كعَدْوِ الطالبين ٥٩
وقميصُه قدّتهُ من دُبُرٍ ليهدى الحاكمين ٦٠
وهناك عند البابِ أقبل سيدُ البيتِ الفطين ٦١
قالت له فوراً : لتسمعنى سماعَ الفاهمين ٦٢
هذا يريد السوءَ منى فليكن في الصاغرين ٦٣
فَلْيُلق في سجنٍ رهيبٍ فى عدادِ المجرمين ٦٤
أو فلْيذُقْ طَعمَ العذابِ لأنه فى المعتدين ٦٥
لكنّ يوسفَ قد أجابَ ، فقال قولَ الصادقين ٦٦
هى روادتنى تطلبُ الفحشاءَ فعلَ الفاسقين ٦٧
ولقد أبيتُ فنالنى ما قد يُرى للناظرين ٦٨
إنى برىءٌ من مقالتِها براءةَ طاهرين ٦٩
سمعَ العزيزُ مقالةَ الاثنينِ سمْعَ الفاهمين ٧٠
من ثم أصبحَ دون شكٍّ فى مقامِ الحائرين ٧١
لكنّ شاهدَهم يقولُ وكان ذا قولٍ أمين ٧٢
إنّ القميصَ هو الدليل لتنظروه كباحثين ٧٣
إنْ كان قُدّ من الأمام فإنه فى الكاذبين ٧٤
أو قُدّ من خلفٍ فيوسفُ صادقٌ هذا يقين ٧٥
وجدوه من خلْفٍ تمزّقَ إثرَ عدوانٍ مبين ٧٦
عرف العزيزُ بأن يوسفَ لم يكن فى الخاطئين ٧٧
من ثَم قال له : فكفّ عن الحديثِ لآخرين ٧٨
اكتمْ لهذا الأمر لا تذكرْه للمتساءلين ٧٩
وإلى زليخا قال قولاً فى هدوء اللائمين ٨٠
فاستغفرى مما جنيتِ فذاك فعلُ الماجنين ٨١

إخوة يوسف أجرموا فى حقه

.....

يـا ويـحَ إخـوة يـوسـف صـاروا قـسـاةً ظـالـمين ١
قـد أجرمـوا فـى حقّه ، كـانـوا لسـوءٍ عـامديـن ٢
الحـقدُ أعـمـاهـم فضـلـوا عن طـريقِ الـراشديـن ٣
بـاعوا أخـاهم بـالدراهـمِ ، وَهْوَ نسـلُ الأكرمـين ٤

حينما أذكر أبناء يعـقوب ، أثناء كتابتى ، لا أستطيع منع قلمـى من غمزهم والنيل منهم، ومن قبل وبعد ذلك، لم يسلموا من تهكمه وسخريته بهم ، فى شعرى ونثرى . . بحيث ألْهَبَهم بسياط التجريح والنقد القاسى ، وذلك من واقع سلوكهم الذى قصه علينا القرآن الكريم ، ولم لا . . فهم فى رأيى قساة ، تجردوا من العواطف ، لا سيما عاطفة الأخوة ، ورابطـة النسب والدم . . ظـالمون فى حكمهـم على يوسف . . ذلـك الغلام البرىء ، الذى لا شأن له بتفضيل أبيه له عليهم ، ولا بما تنطوى عليه قلوبهم . . نتيجة لسلوك أبيهم الذى تصوروه ظالماً ، بل ضالاً .

إن الذى لا شك فيه هو: أنهم أجرموا فى حق يوسف ، والجريمة لم تكن منهم عن جهل، وليست أيضاً عن حسن نية ، بل هى جريمة مقصودة ، خططوا لها بدقة وإتقان .

لقد انتصر الشيـطان فى نفوسهم ، فاستولى على تفكيـرهم ، فصاروا يفكرون به وله، وكأنى بهم من شدة حقدهم على يوسف، قد أراحوا الشيطان من الوسوسة لهم . . وأستطـيع أن أقول ، أيضاً : إن أبـناء يعقوب ، لـو قُدر لهم أن يجـلسوا مع الشـيطان علانية ، ثم قالوا له : أشر علينا بالرأى الصواب بشأن يوسف ! لما جَرُؤَ أن يشير عليهم بقتله كما قـرروا هم ذلك أول الأمر . ذلك لأنه يخشى أن يكون قد أشـار عليهم بما لا يقبلونه ، ذلـك لعلمه أن يوسف ، أولاً وآخراً ، هو أخوهـم ، ولا يمكن أن يفكر أخ يتمتع بقواه العقلية ، فى قتل أخيه . . فهل أنا مبالغ فى هذا . . ؟! لا أعتقد .

إن الذى فعله أبناء يعقوب بأخيهم يوسف ، ليس من أعمال الخير ، ويأليتهم اكتفوا بهذا ، بل ختموا القـصة المؤلمة ، بعمل أمرّ وأقسى على نفس يـوسف ، من إلقائه فى

البئر عـرياناً ، فى غلظة وجـفاء وتجرّد من العاطفـة والود . . . فباعوه بثمـن بخس إلى التجار ، على أنه عبد آبق .

قال الأستاذ عـبد الكريم الخطيب فى كـتابه « القصص القـرآنى » : « إن أصحاب القافلة قد ﴿ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ أى فيه غبن علـى البائعين ، حيث باعـوا الجوهر بيع الحصا ، ورضوا بأن يتقاضوا في مقابل يوسف ﴿ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ ولو عرفوا قدر هذا الجوهر الكريم ، الذى فى أيـديهم ، لضنوا به على البيع ، حيـث لا يقدر بثمن ، ولو كان القناطير المقنطرة من الذهب والفضة » .

يوسف مع التجار فى مصر

.....

قـد واصـلَ التـجـارُ رحـلتَهـم لمـصـر قاصـديـن ٥
ذهبـوا بيـوسفَ نـحو مصـر لموطـنِ المتـحضـرين ٦
وهـناك فـى سـوقِ الـرقيـقِ يُحـاط بالمـتـعـجبـين ٧
لـقد اشـتـراه عـزيزُ مـصـرَ من الـرجال الجـالبـين ٨

بعد أن استراحت القافلة من عناء السفر ، حيث نزلوا فى المكان الذى فيه الجب « جُبّ يوسف » وأيضا قد تمت الصفقة بينهم وبين أبناء يعقوب . . قيل : كان الطرفان زاهدين فى يوسف . . إخوته يريدون بيعه ، وبأى ثمن !!! ولو سألوه بغير ثمن ، لما ترددوا فى التنازل عنه لطالبيه . . هذا من ناحية . . ومن ناحية أخرى لم يكن تجار القافلة متحمسين لشرائه . . فليس هذا نوع تجارتهم .

فى الصباح رحلت القافلة متجهة صوب مصر . . ولا عجب، فمصر أرض الحضارة قديما، وإليها يهرع التجار للصفق . . وها هم أولاء التجار يواصلون رحلتهم الشاقة إلى مصر، يحدوهم الأمل فى تحقيق ربح وفير من تجارتهم، لاسيما من هذا الغلام الذى اشتروه فضموه إلى تجارتهم .

وصل التجار إلى مصر ، ثم توجهوا إلى سوق الرقيق ، حيث يباع الإنسان فيه كما تباع العجماوات ، يُقوّم فيه الإنسان بالدراهم . . فمدار التفضيل فى الذكر ، هيأته وقوة بنيته . . وفى الأنثى ، الجمال وصغر السنّ .

ما إن وقف التاجر فى ذاك السوق البغيض ، ومعه يوسف معروضاً للبيع ، على أنه عبد رقيق، إذا التجار جميعاً قد التفوا حوله . . كل يريد الفوز به مهما بلغ الثمن . . وذلك منافسة عن طريق المزايدة .

احتدمت المنافسة بين التجار، حتى بلغت أشدها ، وفجأة توقفت المزايدة ، واتجهت الأنظار نحو رجل يبدو أنه من ذوى السلطان والجاه . . وبكلمات موجزة مع التاجر ، أصبح يوسف مملوكاً إلى ذلك الرجل . . ذلك الرجل هو عزيز مصر .

« قال القرطبى فى معرض الحديث عن الذى اشترى يوسف فى مصر : قيل: « تزايدوا فى ثمنه، فبلغ أضعاف وزنه مسكاً وعنبراً وحريراً وورقاً وذهباً ولآلئ وجواهر لا يعلم قيمتها إلا الله ، فابتاعه ـ اشتراه ـ قطفير وزير ملك مصر ، من مالك ، التاجر الذى اشتراه من إخوته » .

عزيز مصر يوصى زوجته بيوسف خيراً

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾

فـي بـيـتِه أوصـى بـه زوجاً لـهـا طـبـعٌ مـثـين ٩
مـن قولـه : فـلـتـكرمـي مـثواه إكـرامَ الـبنـين ١٠
فـعـسَاه يـنـفـعُـنـا إذا صِرنـا شـيـوخاً طـاعـنـين ١١
فـلـنـتـخـذْه لـنـا ولـيـداً وارثـاً كـالـوراثـين ١٢

كان عزيز مصر الذى اشترى يوسف ، ذا فراسة وفطنة ، فتوسم في يوسف الأمانة والذكاء والعفة . . وقيل : كان لا يولد له ، بل قيل : لا يأتى النساء .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه «القصص القرآنى » وها هو ذا يوسف ، ينتقل من بلد إلى بلد ، يتحول من يد إلى يد ، حتى يقع أخيراً ليد رجل من مصر ، لا ندرى إلى الآن من هو هذا الرجل ، ولا المكانة التى له في قومه .

إذاً فيوسف الآن فى مصر ، فهل يستقر به المقام فيها ؟! أم ستتناقله الأيدى من بلد إلى بلد ، ومن مصر إلى مصر ، بيعاً وشراءً ، إنه الآن سلعة تباع وتشترى .

وتحدثنا الآية الكريمة ، بأن المصرى الـذى اشترى يوسف ، قد رأى فيه رأيا آخر ، غير الـذى كان يُسَوّى حساب يـوسف عليـه من قبل ، لـقد كان من قـبل بضاعـة تباع وتشترى ، ولكـنه وقد صار إلى يد هذا المصـرى ، سيصبح شيئاً آخـر ، غير الذى كان عليه ، لقد ضمه الرجل إليه واتخذه ابناً له ، ودعا امرأته إلى أن تكرمه ، وتتولى تربيته وتنشئته على ما يتربى وينشأ عليه الأبناء .

وهكذا يجد يوسف فى مـصر أهلاً بدل أهله ، وأباً وأما [1] فى مكان أبيه وأمه ، وهكذا صنع الله تـعالى ليوسف ، ولطف به ، ليس هذا فحسـب ، بل إن له عند الله مزيداً من الفضل واللطف ، فلقد تحرر من العبودية .

(١) ونحن نختلف مع الأستاذ الخطيب في هذا التعبير . . . لأن زوجة العزيز امرأة ماجنة ، بدليل أن قصة مجونها وعبثها . صاغها المولى عز وجل قرآنا ، لا ينفك يتلى على سمع الدنيا . . أما أم يوسف ، فلا . المؤلف .

وهكذا عزيز مصر أوصى زوجته بيوسف فقال لها : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ احرصى على إكرامه، فلا تبخلى عليه بشيء. أحيطيه برعايتك ، فإننى أرى فيه مخايل النجابة والذكاء والفطنة ، ونحن كما تعلمين ، فليس لنا أولاد ، أفلا نتخذه ولداً ، نمنحه الأبوة والرعاية ، ذلك بعد أن نعطيه الحرية ، فنعتقه وننزله منزلة الابن الحقيقى .

وبصفتنا لا يولد لنا كما تعلمين ، فنحن فى حاجة إلى ولد نتبناه ، يكون لنا فى حياتنا ، ويرثنا بعد مماتنا ، ولعمر الله إننا لن نجد خيراً من هذا الغلام ، إنه بهى الطلعة ، حسن الخلق والخلق ، ولا إخاله إلا سيكون ذا شأن عظيم فى هذه الحياة .

تمكين الله ليوسف وتعليمه تأويل الأحاديث

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ... ﴾

بيتُ العزيزِ قد احتواه ، فعاش عيشَ المترفين ١٣
فد مكَّن المولى ليوسفَ ، صار في أمْنٍ أمين ١٤
أعطاه ربُّ العرشِ فضلاً ، نعِمَ ربُّ العالمين ١٥
أعطاه تأويلَ الحديثِ ، غدا به في المرسَلين ١٦

لقد تنقل يوسف الصديق خلال محنته ، من بائع إلى مشتر ، أو من سيد قد باعه إلى سيد آخر قد اشتراه ، وقد انتهى أخيراً فى بيت من أعرق البيوت فى مصر . . إنه بيت حاكم مصر ، ولا عجب فبيت الحاكم يرفل فى النعمة ، وهو كما ذكرنا آنفاً لا يولد له ، فليس له أولاد . . وقد توسم فى يوسف النجابة والعفة ، فأوصى زوجته بيوسف خيراً فقال لها : بما أننا ليس لنا أولاد ، وبالتالى فلاغنى لنا عن الأولاد . . إذاً فلنتخذ هذا ولداً ، فلن نجد خيراً منه .

أى أن يوسف قد بدأ حياة جديدة ،فى بيت عزيز مصر ، حياة كلها ترف وبذخ . . لقد أغدق عليه سيده بلا تحفظ ، إنه يعامله معاملة الابن ، لا يرفض له طلباً ، كل ما فى البيت تحت يده ، يتصرف فيه كيف يشاء .

لقد كانت هذه الحياة الجديدة ، أولى الخطوات فى صعود يوسف نحو القمة ، برغم ما سوف يصادفه من عوامل الجذب إلى القاع ، إلا أن نجمه كان صاعداً ، كان أقوى من كل المؤثرات التى وقفت عوائق فى طريق صعوده .

قال الأستاذ رشيد رضا فى تفسيره « المنار »: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ﴾ أى وعلى هذا النحو من التدبير والتسخير ، جعلنا ليوسف مكانة عالية في أرض مصر ، كان هذا العطف عليه،والرجاء فيه من العزيز مبدأها ، ليقع له فى بيته ثم فى السجن ما يقع من التجارب والاتصال بساقى الملك،فيكون وسيلة للوصول إليه ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ كتعبير الرؤيا،ومعرفة حقائق الأمور،ما ينتهى به إلى الغاية من هذا التمكين».

قال القرطبى فى تفسيره : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ﴾ وكما أنقذناه من إخوته ، ومن الجب ، فكذلك مكنا له ، أى عطفنا عليه قلب الملك الذى اشتراه ، حتى تمكن من الأمر والنهى فى البلد الذى الملك مسئول عليه .

﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ وقيل : المعنى مكناه لنوحى إليه بكلام منا ، لنعلمه من تأويله وتفسيره » .

وقال الفخر الرازى فى تفسيره مفاتيح الغيب: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ﴾ أى كما أنعمنا عليه بالسلامة من الجب ، مكناه بأن عطفنا عليه قلب العزيز ، حتى توصل بذلك إلى أن صار متمكناً من الأمر والنهى فى أرض مصر .

واعلم أن الكمالات الحقيقية ، ليست إلا القدرة والعلم ، وأنه سبحانه لما حاول إعلاء شأن يوسف ، ذكره بهذين الوصفين ، أما تكميله في صفة القدرة والمكنة ، فإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ﴾ وأما تكميله فى صفة العلم فإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ .

المنحة فى ثنايا المحنة ليوسف

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) ﴾

رَبُّ السماءِ أرادَ بالصديقِ خيراً ، عن يقين ١٧
للمجد يصعدُ بالبلاء ، قضاء خيرِ الخالقين ١٨
ما شاءه المولى يكونُ ، برغمِ كُرْهِ الكارهين ١٩
هو غالبٌ فى ملكِه والناسُ ليسوا غالبين ٢٠

الله خالق كل شيء ، وبيده ملكوت كل شيء ، وإليه يرجع كل شيء ، ومن ثم فأمره نافذ فى ملكه ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه ، إذما يشأ أمراً ، فإنما يقول له كن فيكون ، أحياناً يكون المولى عز وجل ، قد أراد خيراً من خلقه ، فيجيء هذا الخير في صورة شرّ فيما يبدو للناس ، بحيث يصير الناس يتعجبون من قسوة الأقدار ، على هذا الذى أريد به الخير ، فى علم الله ، كما هو الحال بشأن يوسف . . . وصدق الشاعر حيث قال :

وكم نعمة لا تستقل بشكرها لله فى طىّ المكاره كامنه

وكما قال ابن عطاء الله السكندرى : « ربما كمنت المنن فى ثنايا المحن ».

قال الأستاذ أحمد بهجت فى كتابه « أنبياء الله » : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ لقد انطبقت جدران العبودية على يوسف . . ألقى في البئر ، أهين ، حرم من أبيه ، التقط من البئر ، صار عبداً يباع فى الأسواق ، اشتراه رجل من مصر ، صار مملوكاً لهذا الرجل ، انطبقت المأساة ، وصار يوسف بلا حول ولا قوة ، هكذا يظن أى إنسان . . غير أن الحقيقة شيء يختلف عن الظن تماماً .

ما نتصور نحن أنه مأساة ومحنة وفتنة ،كان هو أول سلم يصعده يوسف في طريقة إلى مجده . .والله غالب على أمره،ينفذ تدبيره رغم تدبير الآخرين،ينفذ من خلال تدبير الآخرين ،فيفسده ويتحقق وعد الله ،وقد وعد الله يوسف بالنبوة ،وها هو يلقى محبته

على صاحبه الذى اشتراه ، وها هو السيد يقول لزوجته : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ ، وليس هذا السيد رجلاً هيّن الشأن ، إنما هو رجل مهم ، رجل من الطبقة الحاكمة فى مصر . . إنه وزير خطير سماه القرآن « العزيز » وكان قدماء المصريين يطلقون الصفات كأسماء على الوزراء .

فهذا العزيز، وهذا العادل ، هذا القوى . . إلى آخره . . وأرجح الآراء أن العزيز هو : رئيس وزراء « مصر » .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ فيه وجهان :

الأول : غالب على أمر نفسه ، لأنه فعال لما يريد لا دافع لقضائه ، ولا مانع عن حكمه فى أرضه وسمائه .

الثانى : والله غالب على أمر يوسف ، يعنى أن انتظام أموره إلهياً ، وما كان بسعيه ، وإخوته أرادوا به كل سوء ومكروه ، والله أراد به الخير ، فكان كما أراد الله تعالى ودبر ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، أن الأمر كله بيد الله [1] وقال ابن كثير فى تفسيره : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ أى إذا أراد شيئاً ولا يمانع ولا يخالف ، بل هو الغالب لما سواه .

وقال سعيد بن جبير : أى فعال لما يشاء : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يقول : لا يدرون حكمته فى خلقه ، وتلطفه لما يريد .

عن عبد الله بـــن مسعود أنه قال : أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قال لامرأته : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ والمرأة التى قالت لأبيها : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ وأبو بكر الصديق ، حين استخلف عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما .

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازى .

امرأة العزيز تحب يوسف

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾

قد شبّ يـوسفُ واستوى مثـل الشباب البـالغين ٢١
أعـطـاه ربُّ العـرشِ حُسـنـاً صار وضّاءَ الجـبـين ٢٢
بـل زاده فـضـلاً فـأصبـح فـى عِدادِ المـرسَلـين ٢٣
زوجُ الـعزيـزِ تحبّهُ مـن نوع حـبٍّ الـفـاسقـين ٢٤

لقد شب يوسف عن الطوق ، فنما وترعرع فـى بيت العزيز ، بلغ مبلغ الرجال ، فاكتمل عوده ، وامتلأ حيوية وشباباً ، وقد منّ الله عليه ، فأحسن خلقه وخلُقه ، زانه بالحسن ووضاءة الجبين ، فكان أجمل الناس وجهاً .

وفى الصحيح أن يوسف الصديق أعطـى شطر الحسن . . أخبر بذلك محمد ﷺ ، ولما سئل عليه الصلاة والسلام ! أنت أحسـن أم يوسـف ؟! قال عليه الصلاة والسلام : « هو أحسن منى خلْقاً ، وأنا أحسن منه خُلُقاً » .

وقد أتم الله نعمتـه على يوسف ، فأعطاه الرسالة ، فصار مـن الأنبياء المرسلين ، وتلك لعمر الله أعظم منّة منّ الله بها على يوسف الصديق ،فبينما هو فى بيت سيده ، مجهـول الشخصية والأصـل ، هو فى نظر سيـده عبد رقيق ، مـنّ عليه بالتـبنى . . . فارتفع بهـذا من العبودية إلى مقـام السيادة ، ذلك لأنه أصبح ابـناً بالتبنى للـسيد الذى اشتراه ، والابن بالتبنى كان له حقوق الابن بالنسب .

بيد أن امرأة العزيـز فى واد وزوجها فى واد آخر ، فزوجها أوصاهـا بيوسف خيراً وقال لهـا : أكرمى مثواه عـسى أن ينفعـنا أو نتخذه ولـداً ، هذه الوصية مـن زوجها ، كانت كلاماً انتهى فـى حينه ، فمن ثم كان الرجل ينظر إلى يـوسف نظرة أبوة حانية ، بينما المرأة تنظر إلـيه نظرة أخرى ، إنها تتغزل في محاسنه ، لقـد صارت تنظر إليه نظرة كلها شهـوة ، إنها تشتهيه ، ولا عـجب فهى أنثى مكتـملة الأنوثة ، وفى مقتـبل العمر أيضاً ، ويوسـف معها فى بيـتها ، كان كل يوم يزداد حـسناً ، وهو فى نظـرها ليس إلا

خادماً . . إذاً فما عليها إلا أن تأمره ، وما عليه إلا أن يطيع أمرها ،هكذا كان حديثها مع نفسها ، فالشباب والحسن والطاعة ملك لها ، وذلك كله فى يوسف !!

كان طبيعياً أن تميل إليه كامرأة . .أحبته حباً جدياً ، تمنته ، اشتهته ، فزوجها يقضى اليوم كله خارج المنزل ، أما يوسف فهو أمامها ، لا يغيب عن ناظريها .

ياالله !! لقد أحبته امرأة العزيز ، وكم قاسى يوسف من عواقب الحب ، لقد أحبه أبوه قبلاً ، فأوغر ذلك صدور إخوته عليه ، ففعلوا ما فعلوه معه ، فصار من جراء ذلك الحب عبداً رقيقاً ، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، وهذا حب آخر يبتلى به يوسف ، إنه حبٌ ماجن ، يريد من يوسف أن يكون عبداً لشهواته .

قال ابن كثير فى تفسيره: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أى ولما بلغ يوسف أشده : أى اكتمل عقله ، وتم خلقه : ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ يعنى النبوة ، إنه حباه بها بين أولئك الأقوام : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى أنه كان محسناً فى عمله ، عاملاً بطاعة ربه تعالى ، وقد اختلف فى مقدار المدة التى بلغ فيها أشده ، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ثلاث وثلاثون سنة . . وقال الإمام مالك وربيعة،وزيد بن أسلم والشعبى: الأشدّ الحلم ، وقيل : غير ذلك والله أعلم .

وقال القرطبى فى تفسيره: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أشده،عن سيبويه جمع ، واحدة شدة ، وقال الكسائى : واحدة شدة وزعم أبو عبيد ، أنه لا واحد له من لفظه عند العرب،ومعناه استكمال القوة ، ثم يكون النقصان بعد . . وقال مجاهد وقتادة : الأشد ثلاث وثلاثون سنة .

وقال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك بن أنس : الأشد : بلوغ الحلم ، ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ قيل : جعلناه المستولى على الحكم ، فكان يحكم فى سلطان الملك : أى وآتيناه علماً بالحكم ، وقال مجاهد : العقل والفهم والنبوة ، وقيل : الحكم ، النبوة ، والعلم ، علم الدين ، وقيل : علم الرؤيا ، ومن قال : أوتى النبوة صبياً قال : لما بلغ أشده زدناه فهماً وعلماً ،﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ يعنى المؤمنين ، وقيل : الصابرين على النوائب كما صبر يوسف . . وقال القرطبى : هذا وإن كان مخرجه ظاهراً على كل محسن ، فالمراد به محمد ﷺ . . يقول تعالى : كما فعلت هذا بيوسف ، بعد أن قاسى ، ثم أعطيته ما أعطيته ، كذلك أنجيك من مشركى قومك ، الذين يقصدونك بالعداوة ، وأمكن لك فى الأرض .

امرأة العزيز تفكر فى استمالة يوسف

.....

صارت تناجى نفسَها فى حبّه كالحالمين ٢٥
الذئبُ فى أعماقِها يعوى عُواءَ الجائعين ٢٦
من أجلِ هذا قررت أمراً بتدبيرٍ متين ٢٧

صارت امرأة العزيز، تفكر فى أمر يوسف تفكيراً جاداً، إن هذا الأمر استحوذ على عقلها ومشاعرها، تنام وهى تفكر فيه، وعندما تستيقظ من نومها، تستدعيه ليمثل أمامها، لقد أهملت كل شىء فى حياتها ومجتمعها وبيتها، وأولت هذا الأمر كل اهتمامها.

إنها تفكر تجهد نفسها فى التفكير، فى كيفية احتواء يوسف واجتذابه، ولعلها ذهبت بتفكيرها إلى أبعد من هذا.. إن الذى يقلقها ويثير حيرتها هو: أن يوسف لا يبدى نحوها أى نظرة إعجاب أو اشتهاء، كأنه متبلد المشاعر، ليس فيه حرارة الشباب.

ثم تجيب على تلك التساؤلات فتقول لنفسها: ربما كان سلوكه هذا الذى يتّسم بالسلبية، نابعاً من منطلق شدة احترامه لى لكونى سيدته، إذاً فهو يكتم إعجابه بى فى أعماقه، لعدم التكافؤ بينى وبينه.. فهو فى رأيه، لا أمل لديه من التطلع إلى القمة، بينما هو فى السفح.. ثم تتساءل.. ماذا أصنع ؟!

وانطلاقا من هذا التساؤل، أخذت تفكر فى وسيلة ناجحة لاحتواء يوسف واستمالته، وجعله ملكاً لها قلباً وقالباً.. ولاغرو فهى تملكه قالباً لكونه خادمها، فمن ثم تريد أن تملك قلبه أيضاً.

صارت تقلب وجوه الآراء، بحثا عن رأى صائب، وأخيراً هبط عليها الوحى الشيطانى، لقد أوحى لها شيطانها بفكرة مرت بخاطرها، كموجة أثيرية، فالتقطتها، أمسكت بها، تصورتها الحل السحرى لمشكلتها التى تعانى منها وتقض مضجعها.

ملخص هذه الفكرة هى: أن تتلطف مع يوسف وتُشعِرهُ بكيانه، كشاب له رأيه وشخصيته، بهذه الطريقة سيتحطم الحاجز الذى يفصل بينها وبين يوسف، ثم بعد ذلك تستدرجه إلى مخدعها، وهل هو إلا رجل ككل الرجال.. ثم تقول لنفسها:

إننى أرى نظرات الرجال تـلاحقنى بالإعجاب ، تريد أن تلتهمنـى شهوة واشتهاء ، هذا من ناحية،ومن ناحية أخرى ،فهو خادمى ، وحينما آمره سوف يزول القناع الذى يخفى وراءه مشاعره نحوى ، وبالتالى يصير رهن إشارتى .

لقد اطمأنت إلى صحة فكرتها ، فبدأت تلاطف يوسف باللين ، وتتحدث معه دون ترفع،وبصوت فيه تكسر وخلاعة . . إن فى أعماقها ناراً مشبوبة ، كلما وقع بصرها على يوسف زادت تأججاً .

امرأة العزيز بدأت فى تنفيذ خطتها

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ... ﴾

هـمـتْ تُنَفِّذُ خُطَّةً مـن وَحْى إبـلـيـسَ الـلـعـين ٢٨
فـى مَخْدَعٍ قـد هـيَّأَتْهُ إلـى لِقَاءِ الـعـاشـقـين ٢٩
نـادت علـى الـصِّدِّيقِ أقـبلَ مُسْرِعـاً كـالخادمـين ٣٠
نـادتُه والـثوبُ الـرقـيـقُ يَشِفُّ عن جَسَدٍ فـتـين ٣١

كما ذكرنا آنفاً، فإن زوجة العزيز، سلكت مسلكاً جديداً فى معاملتها ليوسف الصديق، كان وراء هذا السلوك الجديد، خطة رسمتها زينها لها شيطانها، عليه اللعنة، ولا عجب فى ذلك فإبليس اللعين هو مفكرها ، المستولى على عقلها وفكرها ، يأمرها فتطيع أمره .

وفعلا بدأت تنفذ خطتها ، بالتنازل عن كبريائها ، وملاطفة يوسف ، ثم انتقلت إلى المرحلة الثانية من الخطة وهى الأخيرة أيضاً .

تجملت وتزينت كما لم تتجمل وتتزين من قبل ، وفى غرفة نومها التى جملتها ، بحيث صارت تخلب لب كل من رآها ، وتثير فى نفسه كوامن الجنس والشبق .

لقد اضطجعت على سريرها فى وضع مثير ، بحيث تبدو مفاتن جسدها ، ثم نادت على يوسف الصديق، بصوت فيه ليونة وتكسر، ودفء ودلال أيضاً ، قالت : يا يوسف! أجابها ، لبيك يا سيدتى، وأقبل مسرعاً كعادته حينما كانت تناديه من قبل .

كانت ترتدى ثوباً رقيقاً يشف عن جسد بضّ ، مملوء حيوية وشباباً ، فيه جمال وفتنة ، ورغبة مشبوبة تتأجج فى أعماقها .

لقد استنفذت كل الوسائل لإغرائه واستمالته ، سنين طويلة ، كان ذلك كله تلميحاً . . فقد كانت قبل ذلك تستدعيه ، وهى فى غرفة نومها ، مستلقية على سريرها بملابس النوم، فتأمره أن يحضر لها شيئا ما . . وكانت تختلق الأحاديث معه ، وهى على تلك الحالة ، ليطيل المكث معها فى غرفتها ، كل هذا كان الغرض منه أن تلمح منه نظرة جانبية ، إلى جسدها الذى يحترق شوقاً وتعطشاً إلى الجنس . . الجنس الذى غلب

على عقلها ، وعلى تفكيرها ، ثم انعكس على سلوكها .

بيد أن يوسف الصديق فى كل هذا معرض كل الإعراض ، ليس فى قلبه شىء مما يدور فى رأس امرأة العزيز وفكرها .

قال الفخر الرازى فى تفسيره : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ اعلم أن يوسف عليه السلام كان فى غاية الجمال والحسن . فلما رأته المرأة طمعت فيه ، ويقال أيضاً : إن زوجها كان عاجزاً يقال : راود فلان جاريته عن نفسها ، وراودته هى عن نفسه ، إذا حاول كل واحد منهما الوطء والجماع .

وقال ابن كثير فى تفسيره : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ أى حاولته على نفسه ، ودعته إليها ، وذلك أنها أحبته حباً شديداً لجماله وحسنه وبهائه ، فحملها ذلك على أن تجملت له .

وقال القرطبى فى تفسيره : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ وهى امرأة العزيز ، طلبت منه أن يواقعها ، وأصل المراودة ، الإرادة والطلب برفق ولين . . والرود والرياد ، طلب الكلأ ، وقيل : هى من رويد ، يقال : فلان يمشى رويداً ، أى يرفق ، فالمراودة ، الرفق فى الطلب ، يقال فى الرجل : راودها عن نفسها ، وفى المرأة ، راودته عن نفسه ، والرود ، التأنى ، يقال : أرودنى . أمهلنى .

امرأة العزيز أخطأت فى ظنها

﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ ﴾

قـد أغْلَقَت أبـوابَهـا مَنْعـاً لكُلّ الـقـادمـين ٣٢
كـانَت تظـنُّ بـأن يُوسُفَ كالـرجالِ الـفـاسقـين ٣٣
مـا أن تُشيرُ إلـيـه ، يـأتيـهـا مَجـيءَ الراغـبـين ٣٤
لـكـنّ يـوسُفَ كـان عفّاً مـن سُلالـةِ صـالحـين ٣٥

حينما قررت امرأة العزيز، أن تنفذ خطتها التى تصورتها ناجحة ، وأنها سوف تحقق حلمها الذى تحلم به ، ألا وهو : استمالة يوسف وجعله طوع بنانها ، كانت قد أغلقت كل الأبواب ، بحيث لا يستطيع أحد أن يلج داخل البيت ، دون أن يطرق الباب .

كانت تظن أن يوسف ، كأى رجل ، إذ كل الرجال يعجبهم الجمال ، وهى فى قمة الجمال ، وتعتقد أيضاً أن أى رجل ، لا يمتنع عن تلبية دعوة لقضاء وقت فى أحضان الجمال والمتعة . . ذلك لأن الجنس هو الذى يسيطر على تفكير الرجل والمرأة حينما يلتقيان ، ولا سيما إذا ما كانا إلى الشباب أقرب .

هكذا كان تصورها عن الرجال ، بصفة عامة ، وفى رأيها أن يوسف هذا ما هو إلا واحد منهم .

بيد أن سؤالاً يبرز فى أعماقها ينفى هذا التصور عن يوسف . . هذا السؤال هو : لو كان يوسف كالرجال الآخرين الذين يركعون تحت أقدام الغانيات ، طلباً للمتعة الجسدية، فلماذا لم تَرَى منه استجابة لتلميحات منك له. كانت أكثر تصريحاً من التصريح نفسه . . ؟! ولم تَرَى منه حتى مجرد نظرة اشتهاء جريئة ، أو حتى خَجِلة . . ؟!

هذا السؤال ، لم تستطع أن تجيب عليه ، إنه سؤال منطقى ، وكان ينبغى عليها أن تراجع حساباتها ، فيما قررته بشأن يوسف ، غير أن صوت الوحش فى أعماقها ، طغى على عقلها ، فظلت ماضية فى تنفيذ خطتها .

هكذا فى رأيى كان تصورها، أو قريباً من هذا . . وقد خاب رأيها وتصورها أيضاً،

فيوسف الصديق كان عفاً طاهراً من سلالة طاهرة عفيفة،إنه سليل بيت النبوة ، هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم .

قال الفخر الرازى فى تفسيره : ﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ ﴾ والسبب أن ذلك العمل ، لا يؤتى به إلا فى المواضع المستورة ، لاسيما إذا كان حراماً ، ومع قيام الخوف الشديد .

وغلقت الأبواب : أى أغلقتها . . قال الواحدى : وأصل هذا من قولهم فى كل شىء تشبث فى شىء فلزمه ، قد غلق يقال : غلق في الباطل ، وغلق فى غضبه ، ومنه غلق الرهن ، ثم يعدى بالألف فيقال:أغلق الباب ، إذا جعله بحيث يعسر فتحه .

قال المفسرون : وإنما جاء « غلقت » على التكثير ، لأنها غلقت سبعة أبواب ، ثم دعته إلى نفسها .

امرأة العزيز تدعو يوسف لارتكاب الفاحشة

﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾

قالت : فإنـى «هيت لك» أقبِلْ وكن فـى الآمنين ٣٦
أقـبلِ فـإن الشـوقَ يَغلـبـنى إلـيكَ مـع الحنـين ٣٧

لقد ظلت امرأة العزيز زمنا طويلاً ، تمنى نـفسها بشيء كانت تتصوره سهل المنال ، ألا وهو : احتواء يـوسف الصديق ، فيظل لـها عبداً وعاشقاً فـى آن واحد ، ومن ثم يظل سرّها مخفياً ، بعيداً عن دائرة الشك والظن لدى كل المحيطين بها . . كل هذا كان حديثاً مع نفسها ، وحواراً يدور فى أعماقها .

ثم خرجـت من حديث الـنفس ، إلى الـعلانية . . مـن عوامل المد والجـزر التى تتصارع في أعماقها ، إلـى الواقع ، إلى الترجمة الحقيقية لكل أحاسـيسها وتصوراتها ، إلى المصارحة المكشوفة . . لقد مزقت أقنعة الحياء . . فقالت ليوسف: ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه « القصص القرآنى » و « هيت لك » هو صوت استدعـاء لهذا الأمر الذى يكون بـين الرجل والمرأة ، وقد جاء به الـقرآن الكريم على هذه الصورة التى لم تعرفها اللغة الـعربية ، فى لسانها قبل نزول القرآن وذلك أدب رفيع مـن أدب الشريعة الإسـلامية ، وأدب كتابـها الكريم ، وذلك أن هـذا الأمر الذى يتحدث عنه القرآن، من شأنه أن يكون سراً بين الرجل والمرأة ،لا يطلع عليه غيرهما . . إنها لغة يفهمها الزوجان ، سواء أكانت بإشارة أم بعبارة .

هذا هو المـفهوم الذى يعطـيه هذا الصوت « هـيت لك » ودع عنك ما ذهـب إليه الذاهبون من تأويلات وتخريجات لكمة « هـيت لك » وخذها على أنها حكاية صوت ، مصحـوبة بإشارة يد ، أو لحظ عـين ، لا على أنها مـن لغة التخـاطب المتعامل بـها فى قاموس اللغة ، إنها فى مقامها هنا ، كلمة استدعاء وإغراء وكفى !

فى القرطبى عن ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ قال : « قال أبو عبيد : كان الـكسائى يقول : هى لغة لأهل حوران وقعت إلـى أهل الحجاز ، معناه تعالَ ، قال أبو عبيـد : فسألت شيخا

عالماً من حوران ، فذكر أنـها لغتهم ، وبه قال عكرمة . وقال مجـاهد وغيره : هى لغة عربية تدعوه بها إلى نفسها ، وهى كلمة حث وإقبال على الأشياء . . » .

قال الفخر الرازى فى تفسيره : ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ .

قال الواحدى : هيت لك ، اسم للفـعل نحو : رويداً ، وصه ، ومه ، ومعناه : هلم فى قول جميع أهل اللغة .

وقال الفراء : إنها لغة لأهل حوران ، سقطت إلى بكة فتكلموا بها . . . وقال ابن الأنبارى :وهذا وفاق بين لغة قريش وأهل حوران . كما اتفقت لغة العرب والروم فى ـ القسطـاس ـ ولغة العرب والفـرس فى ـ السجيل ـ ولـغة العرب والترك فـى ـ الغساق ـ ولغة العرب والحبشة فى ـ ناشئة الليل .

يوسف يستعيذ بالله ويرفض الدعوة

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) ﴾

فأجابها فوراً « معاذَ الله » ربُّ العالمين ٣٨
لا ، لستُ خوَّاناً ، فهذا من صفات الخائنين ٣٩
لا ، لن أخونَ لسيدى ، قد كانَ لى فى المكْرِمين ٤٠
إن الخيانةَ دون شكٍّ من صفاتِ الظالمين ٤١
والظالمون فلن يكونوا فى عدادِ المفلحين ٤٢

بعد الحوار الذى دار بين يوسف الصديق، وزوجة العزيز، وتنازلت بعده عن كبريائها، وكشفت عن مكنون صدرها ، فصرحت ليوسف بحبها ، فدعته دعوة صريحة إلى الحب الماجن ، فقالت له ما معناه : إنى مشتاقة إليك ، هلم إلى الحب ، إلى الشباب ، إلى العز ، إلى المجد فى أحضانى ، لاتخف من شىء مادمت معى وفى طاعتى . . إلخ .

فكان جواب يوسف على هذه الدعوة الماجنة ، دون أدنى تردد أو تفكير أن قال : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ بالله !! يوسف الصديق ، برغم ما تهيأ له وأمامه من وسائل الإغراء . . جو مشحون بالإثارة ، أمام عينيه ، وملء أذنيه ، وبرغم هذا كله قال : « معاذ الله » لاشك في أن قلبه عامر بالإيمان ، ومن ثم فهو لم يتأثر بكل ما هيأته له امرأة العزيز من إغراء وإثارة ، لتحقيق رغبتها المتأججة .

ثم أردف يوسف قائلاً : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

قال الأستاذ رشيد رضا فى تفسيره « المنار » فى ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ أى إنه تعالى ولى أمرى كله ، أحسن مقامى عندكم ، وسخركم لى بما وفقنى له من الأمانة والصيانة ، فهو يعيذنى ويعصمنى من عصيانه وخيانتكم . . . ويحتمل أنه أراد بربه ، مالكه العزيز فى الصورة، وإن كان حراً مظلوماً فى الحقيقة ، كما يقال : رب الدار . . وكان من عرفه إطلاقه على الملوك والعظماء ، كما يأتى فى قوله عليه السلام لساقى الملك فى السجن : ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ .

« قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى قوله : ﴿ مَعَاذَ اللَّه ﴾ بهذا الأسلوب الرصين الوديع، كأن رد يوسف على مادعته إليه امرأة العزيز ﴿ مَعَاذَ اللَّه ﴾ أى عياذاً بالله ، ولجأ إليه، واحتماء به من هذا السوء الذى يدعى إليه ﴿ إِنَّهُ رَبِّي ﴾ أى إن هذا السيد الذى أنت زوجه ، هو ربى ، أى سيدى الذى ضمنى إلى بيته ، وأكرم مثواى عنده ، وخيانته في أهله عدوان على المروءة والخلق الكريم، إذ كيف يقابل الإحسان بالإساءة ، والإكرام بالغدر والخيانة ؟! إن ذلك ظلم أى ظلم . . وإن الظالمين لا يفلحون أبداً . ويجوز أن يكون قوله : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي ﴾ مراداً به الله سبحانه وتعالى ، هو سبحانه الذى أحسن مثوى يوسف ، وهيأ له الطريق إلى بيت هذا البيت الذى وجد فيه الطمأنينة والأمن . . » .

قال الفخر الرازى فى تفسيره :

إن المرأة لما ذكرت هذا الكلام ، قال يوسف عليه السلام : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ فقوله تعالى : ﴿ مَعَاذَ اللَّه ﴾ أى أعوذ بالله معاذاً .

والضمير في قوله تعالى ﴿ إِنَّهُ ﴾ للشأن والحديث ﴿ رَبِّي ﴾ أى ربى وسيدى ومالكى ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ حين قال لك : « اكرمى مثواه » فلا يليق بالعقل أن أجازيه على ذلك الإحسان بهذه الخيانة القبيحة ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُون ﴾ الذين يجازون الإحسان بالإساءة ، وقيل : أراد الزناة لأنهم ظالمون أنفسهم ، أو لأن عملهم يقتضى وضع الشىء فى غير موضعه .

واستطرد الفخر الرازى فى قوله وتساؤلاته وأجوبته عليها إلى أن قال :

السؤال الثالث : ذكر يوسف عليه السلام فى الجواب عن كلامها ثلاثة أشياء :

الأول : قوله تعالى : ﴿ مَعَاذَ اللَّه ﴾ .

الثانى : قوله تعالى ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ .

الثالث : قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُون ﴾ .

الجواب : هذا الترتيب فى غاية الحسن ، وذلك لأن الانقياد لأمر الله تعالى ، وتكليفه أهم الأشياء ، لكثرة إنعامه وألطافه فى حق العبد .

هم امرأة العزيز .. أن تضرب يوسف

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ... ﴾

هـمت لـتـأخذَه ، أبَى ، فـى عـفـةِ المتـبـتـلـين ٤٣
لـمـا أبىَ فـقدتْ صـواباً ، أصـبحـت كالـذاهلـين ٤٤
جرُحـت كرامتُها فـصارت كالـوحوشِ الكاسـرين ٤٥
بالـضربِ قـد آذته ، هـم بِمنـعهـا كى تـسـتـكين ٤٦

كما أسلـفنا ، فإن يوسف الـصديق ، رفض الاستجـابة لدعوة امرأة العـزيز دونما تفكير ، وبغير تردد فقال : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ فتصورت زليخا ـ امرأة العزيز ـ أن يوسف ما رفض الاستجابة لدعوتها ، أو الإذعان لأمرهـا ، للرفض ذاته . . وإنما رفض ليتأكد من صدق دعوتها ، فاقتربت مـنه مبدية توداداً وحباً ، ثم همت لتحتويه بـين أحضانها ليهدأ ويطمـئن ، فلا ينفـرد ولا يفر ، وليـشعر بأن الحواجـز بينها وبـينه قد تحـطمت ، وأن دعوتها له صادقة لا شك فيها ، فما عليك إلا أن يأخذ حظه من الجمال والحب ، الذى تهيأ له دونما أدنى جهد منه .

بيد أنها فوجئت بـه يؤكد رفضه ، ويخيب ظنها وما قد تصورته ، فـابتعد عنها فى إباء وترفع ، وفى الوقت نفسـه لم يملأ عينيه بالنظر إليها . فى حين أن يوسف الصديق ، كان مكتمل الرجولة ، فهو شاب يجد من شبق الشباب ، ما يجده كل شاب لرؤيته امرأة حسناء ، لاسيما إذا ما كانت شبه عارية ، تدعوه وتشوقه إلى نفسـها . . فى هذه الحالة ، نحن لا ننكـر الهمَّ من يوسف ، بيد أنـه هم عارض ، كالخطرة فى القـلب ، وحديث النفس . . ومثال ذلك : أن الرجل الصالح الـصائم في الصيف الصائف ، إذا رأى الماء البارد ، فإن طبيعـته تشتهيه ، إلا أن دينه يمنعه من ذلـك . . وكان هم يوسف من هذا النوع ، من غير اختيار ولا عزم ، فمن ثم كانت قوة إيمانه ، أقوى من الهم العارض ، ومن حديث الـنفس ، فى هـذا الموقف ، شعـرت زليخا بإهـانة عظيـمة ، ودار فى خاطـرها هذا السؤال! كيف يجرؤ يوسف على رفض أمرها ؟! فهو لم يرفض لها أمراً من قبل ذلك.

وانطلاقاً من هذه المعانى التى تدور فى خاطرها ، وانعقد عليها فهمها وعقلها ، هاجت غاضبة ، أقبلت على يوسف ، متغيرة سحنتها ، تريد أن تفتك به ، كأن لها ثأراً عنده ، فانهالت عليه بالضرب ، حتى أوجعته وآذته ، فهى تتصور أنها تملكه ، ومن ثم فليس له الحق أن يرفض لها أمراً .

« قال الأستاذ رشيد رضا في تفسيره « المنار » ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ أى وتالله لقد همت المرأة بالبطش به لعصيانه أمرها ، وهى فى نظرها سيدته وهو عبدها ، وقد أذلت نفسها له بدعوته الصريحة إلى نفسها ، بعد الاحتيال عليه بمراودته عن نفسه . . ومن شأن المرأة أن تكون مطلوبة لا طالبة ، ومراودة عن نفسها لا مراوِدة . . ثم مضى فى قوله إلى أن قال: ولكن هذا العبد العبرانى ، الخارق للطبيعة البشرية فى حسنه وجماله ، وفى جلاله وكماله ، وفى إبائه وتألهه قد عكسر القضية ، وخرق نظام الطبيعة والعوائد بين الجنسين ، فأخرج المرأة من طبع أنوثتها فى إدلالها وتمنعها ، وهبط بالسيدة المالكة من عزة سيادتها وسلطانها ، ودهور الأميرة من عرش عظمتها وتكبرها ، وأذلها لعبدها وخادمها . . إلخ ما قال » .

هم يوسف .. أن يضرب المرأة

﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾

أبتِ التراجعَ هم يضربُها ، رأى النور المبين ٤٧
فلقد رأى البرهانَ في أعماقه ، هذا يقين ٤٨
معناه ، إن تضربْ زليخا ، نالك الغمز المبين ٤٩
فلتصبرنّ على أذاها ، لاتكنْ كالجاهلين ٥٠

كما أسلفنا ، فإن امرأة العزيز ، انهالت على يوسف الصديق تضربه ، ثأراً لكرامتها المهدرة ، لقد صارت كاللبؤة الشرسة ، تضربه بكل قوتها ، وهو يحاول منعها ودفعها عن نفسه ، فلا تمتنع ، بل تزداد عدواناً وتهوراً .

وهو مع هذا ممسك بزمام نفسه ، كاظم غيظه ، وهو قادر على رد العدوان ، لكونه رجلاً فيه القوة والشباب . . وأن التي تعتدى عليه هذه ما هي إلا امرأة ماجنة . . إنه في صراع داخلي مع نفسه . . أيظل هكذا مكتوف الإرادة أمامها ، تضربه ولا يردها ؟! إن حاله معها يقول: نعم . . نظراً لكونه عبدها وهي سيدته ، فليس له حق الاعتراض .

أم أنه يثور لكرامته ، ويمنعها من الاعتداء عليه بكل وسيلة ممكنه . . فهو كإنسان له طاقة تحمل ، وقد آذاه الضرب وأوجعه . . وحينئذ تحركت فيه كوامن حريته المسلوبة ، فهمّ أن يبطش بالمرأة بقوم وحزم . . فلقد صبر على أذاها كثيراً . . فلا ينبغي أن يظل في موقف المدافع عن نفسه كأنه اقترف جرماً . . بينما هو البريء الشريف .

لقد هم أن ينفذ ما عزم عليه في أعماقه، بيد أن الله عز وجل، تداركه بحكمته فأراه البرهان . . البرهان الذي أنقذه من خطر كان ينتظره لو أنه فعل ما عزم عليه . . هذا البرهان كان شعوراً شعر به في أعماقه، معناه . . إياك يا يوسف أن تفعل شيئاً مما عزمت عليه في أعماقك، فإنك إن ضربتها، قامت الحجة عليك بأنك راودتها عن نفسها، وأنك أردت بها سوءاً .

ومن ثم فلن تستطيع إثبات براءتك ، ولا غرو فهي سيدة عظيمة ذات مركز خطير ، وسوف تجد أنصاراً يؤيدونها ، ويصدقون قولها . نظراً لجاهها وسلطانها . . وأنها لا يمكن أن تقارف مثل هذا العمل ، لا سيما مع خادمها !!!

أما أنت، فنظراً لكونك فى نظر الناس، عبدها وخادمها، فسوف يصدقون ما قيل عنك؛ ذلك لأنك من طبقة الخدم والعبيد، وهم طبقة سفلى. . ولا يبالون من ارتكاب الفواحش والمساوئ. . فما عليك إلا أن تصبر على أذى هذه المرأة، لا تكن كالحمقى الجهلاء، الذين لا يقدرون للعواقب قدرها. . هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فلتعلم يا يوسف أنك لو ضربتها، فسوف يكون مصيرك الهلاك، لأنها فى هذه الحالة سوف تأمر الحاضرين من الخدم فى البيت ، بأن يقتلوك . . إذاً فالامتناع عن ضربها فيه صون لنفسك من الهلاك .

مع المفسرين فى قولهم فى : ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ :

قال القرطبى: واختلف العلماء فى همه عليه السلام، ولا خلاف في أن همها كان المعصية، وأما يوسف فهمّ بها، ولكن لما رأى البرهان، ما هم، وهذا لوجوب العصمة للأنبياء، فإذاً فى الكلام تقديم وتأخير، أى لولا أن رأى برهان ربه هم بها. . قال أبو حاتم: كنت أقرأ غريب القرآن، على أبى عبيدة، فلما أتيت على قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾قال أبو عبيدة: هذا على التقديم والتأخير، كأنه أراد، ولقد همت به، ولولا أن رأى برهان ربه، لهم بها . . وقال أحمد بن يحيى : أى همت زليخا بالمعصية ، وكانت مصرة ، وهم يوسف ولم يواقع ما هم به ، فبين الهمتين فرق .

وقيل : إن هم يوسف ،كان معصية ، وأنه جلس منها مجلس الرجل من امرأته ، وإلى هذا القول ذهب معظم المفسرين وعامتهم ، فيما ذكره القشيرى أبو نصر وابن الأنبارى والنحاس والماوردى وغيرهم .

قال ابن عباس: حل الهميان ـ شداد السراويل ـ وجلس منها مجلس الخاتن ، وعنه: استلقت على قفاها، وقعد بين رجليها ينزع ثيابه، وقال سعيد بن جبير: أطلق تكة سراويله، وقال مجاهد: حل السراويل حتى بلغ الأليتين ، وجلس منها مجلس الرجل من امرأته .

ثم عقب القرطبى على هذا الأقوال وغيرها فقال: وهذا كله على أن هم يوسف بلغ فيما روت هذه الفرقة إلى أن جلس بين رجلى زليخا ، وأخذ فى حل ثيابه وتكته ونحو ذلك، وهى قد استلقت له على قفاها حكاه الطبرى. . وقال أبو عبيد القاسم ابن سلام ، وابن عباس من دونه ، لا يختلفون فى أنه هم بها ، وهم أعلم بالله ، وبتأويل كتابه .

قيل: رأى يوسف فى سقف البيت مكتوباً : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢] وقال ابن عباس: بدت كفٌ مكتوب عليها: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ وقيل: نودى يا يوسف! أنت مكتوب فى ديوان الأنبياء، وتعمل عمل السفهاء؟! وقيل: رأى

صورة يعقوب على الجدران، عاضاً على أنملته يتوعده فسكن، وخرجت شهوته من أنامله.

هذه الأقوال موجودة فى معظم التفاسير، من المفسرين من يؤيدها، ومن ينكرها، ومنهم من يذكرها فلا ينكرها ولا يؤيدها . . !! ولا غرو، فلنا على هذه الأقوال بعض المآخذ :

١ ـ أن ابن عباس الذى يعتبر من أفقه أصحاب رسول الله ﷺ ، وذلك ببركة دعاء رسول الله له حيث قال : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل . . . » أقول إنه لا يمكن أن يقول هذا القول ، وأنفى عنه بشدة ، هذا القول المنسوب إليه .

٢ ـ أن يوسف عليه السلام سليل السلسلة الذهبية من الأنبياء، فهو يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله، لا يمكن أن يأتى هذا العمل، ذلك لأن من الناس، من هم ليسوا بأنبياء ولا أولياء، تنزهوا عن مقارفة هذه الجريمة مثل سليمان بن يسار وغيره كثيرون.

٣ ـ أن يوسف إن لم يكن نبياً إبّان هذه القصة، فهو موعود بالنبوة فهل يعقل أن يقدم على هذا العمل، ولا يتراجع إلا بعد رؤيته البرهان. . إن هذا البرهان أو البراهين التى ذكرت، لو رآها أشرّ الناس، ممن ألفوا ارتكاب الفاحشة، لما ظل فيه عرق ينبض للقيام بمهمة الجماع، ومن ثم فإننى أنفى بشدة، هذا القول المنسوب لابن عباس، وأنفى بأشد منه عن يوسف أنه هم بالمعصية، وما منعه من إتيانها إلا رؤية البرهان، أو البراهين المزعومة، هذه الأقوال لا إخالها إلا من الإسرائيليات التى نقلها إلينا حاطبو الليل ، الشغوفون بكل غريب .

وهاكم رأينا عن هم يوسف والبرهان الذى رآه .

البرهان ليوسف الصديق كان معنويا

.....

هى دون شكٍ من ذواتِ النقصِ فى عقلٍ ودينْ ٥١
فاصبرْ كصبرِ الأنبياءِ ، فقد غدوْا في الخالدين ٥٢
ولأنتَ ذو عقلٍ رجيحٍ ، فى عدادِ المرسَلين ٥٣
ذاكم هو البرهانُ فى الأعماقِ ، رؤيا المتقين ٥٤

ها نحن أولاء نواصل الحديث الذى تصورناه ، أن الله عز وجل أوحى ليوسف الصديق به . . أوحى له به فى أعماقه ، وهو :

إنها امرأة يا يوسف ، والمرأة موصوفة بالضعف ، فضلاً عما عرف عنها من النقص فى الدين والعقل معاً ، يؤيد هذا المعنى ويؤكده ما رواه الإمام مسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يا معشر النساء ! تَصَدَّقْن وأكثرن الاستغفار ، فإنى رأيتكن أكثر أهل النار ». فقالت امرأة منهن جزلة ـ فصيحة جريئة ـ ومالنا أكثر أهل النار يا رسول الله ؟! قال : « تكثرن اللعن ، وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لبِّ منكن » ، قالت : يا رسول الله ! ما نقصان العقل والدين ؟! قال : « أما نقصان عقلها ، فشهادة امرأتين تعدل شهادة وجل ، فهذا نقصان العقل ، وتمكث الليالى لا تصلى ، وتفطر فى رمضان ، فهذا نقصان الدين ».

ويواصل صوت الوحى نصحه ليوسف الصديق فيقول كما تصورناه : اصبر يا يوسف ، لا تتعجل ، عاملْها كامرأة وأنت رجل ونبى . . فلقد صبر الأنبياء قبلك على ما هو أشق وأمرّ من ذلك ، وإن شئت مجداً وخلوداً ، فإياك من عمل يكون فيه حماقة ، تكون نتيجته عليك لا لك .

يا يوسف ! إنك مكتمل العقل ، وقد اخترناك لأعباء الرسالة ، وأنت أيضا من سلالة كريمة ، أنت من آل بيت النبوة ، فينبغى أن تتحلى بالحكمة والحزم ، وأن تنظر إلى هذا الأمر نظرة واعية ، فيها الفطنة ، وفيها استجلاء لما سوف يترتب على ذلك الفعل الذى تفكر فيه . . . هذا هو البرهان الذى رآه يوسف فى أعماقه ، والذى معناه

ما ذكرناه . . إنه برهان أضاء قلب يوسف وعقله وفكره أيضا ، فرأى الصواب ، بعد أن كان محجوباً عنه ، تحجبه ظلمات الموقف ، ورائحة الخطيئة التى تحيط به ، توشك أن تمسك بتلابيبه ، وهو لا يكاد يرى لنفسه مفراً منها .

قال الأستاذ رشيد رضا فى تفسيره « المنار » ، « . . فكان الفرق بين همّها وهمه ، أنها أرادت الانتقام منه ، شفاءًا لغيظها من خيبتها ، وإهانته لها ، فلما رأى أمارة وثوبها عليه ، استعد للدفاع عن نفسه ، وهم بها ، فكان موقفهما موقف المواثبة ، والاستعداد للمضارَبَة ، ولكنه رأي من برهان ربه وعصمته ما لم تر هى مثله ، فألهمه أن الفرار من هذا الموقف ، هو الخير الذى تتم به حكمته سبحانه وتعالى ، فيما أعده له ، فلجأ إلى الفرار ترجيحا للمانع على المقتضى » .

صرف السوء والفحشاء عن يوسف

﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ولنصرفنَّ السُّوءَ والفَحْشَاءَ عنك لتَسْتَبِين ٥٥
إذ أنت صفوتُنا سُلالةُ أنبياءٍ مُخْلِصين ٥٦
لما تحققَ يوسفٌ من ذلك النصحِ الأمين ! ٥٧

وهكذا يكون البلاء ، لاختبار معدن المبتلى ، ولا غرو فالبلاء يشبه البوتقة التى تنصهر فيها المعادن ، ليظهر نفيسها من رديئها . . . تلكم هى سنة الله فى خلقه ، أن يبتليهم ويفتنهم فى دينهم ، فقال عز وجل : ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [العنكبوت] ثم يستدرك الله بلطفه ورحمته، عباده المخلصين ، فينصرهم ويقويهم على كل ما يصادفهم من المحن والأهوال،وإذا هم خرجوا من محنة الابتلاء ، منتصرين مرفوعى الرؤوس .

يؤيد هذا المعنى ما روى عن المعصوم محمد ﷺ أنه قال حينما سئل ، أى الناس أشد بلاءًا ؟! قال : « الأنبياء ، ثم الأمثل ، يبتلى الناس على قدر دينهم ، فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه ، ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه ، وإن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشى على الأرض ما عليه من خطيئة » . رواه ابن حبان .

« وأعجبنى كلمات للأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه «القصص القرآنى »،« إن الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، مبتلون بما يبتلى به الناس ، بل وأقسى وأعظم ما يبتلى به الناس،من فتنٍ تلح عليهم بكل أثقالها،فيلقونها بعزماتهم، ويصدونها بإيمانهم ، ويستعصمون منها بكل ما فى طاقتهم من قوى ، حتى إذا استنفذوا كل ما فى كيانهم من صبر تحتمله الطاقة البشرية ، وكادوا يُهزمون فى هذا الصراع المحتدم ، جاءهم نصر الله ، وتوافدت عليهم أمداده وألطافه ، فربطت على قلوبهم ، وثبتت من أقدامهم،وإذا هم فى مقامهم الرفيع الكريم ،وإذا الفتن صرعى بين أيديهم ، معفرة بتراب الخزى والاندحار ، ثم يقول أيضا : وأى فضل لأنبياء الله ورسله ، على غيرهم

من الناس،إذا هم لم يُبتلوا أعظم ابتلاء،ولم يُمتحنوا أشد امتحان ، وإذا هم لم يجاهدوا هذا الجهاد المتصل فى قهر الفتن ، ودحر الأهواء ، ومغالبة الشهوات ، وأي فضل لهم إذا كانت الفتن لا تحوم حولهم ، والأهواء لا تتحرك فى نفوسهم ، حتى لا يكون سنهم معاناة ومغالبة ، وصبر على احتمال المكاره ؟! أى فضل لهم يحمدون عليه ويستأهلون به هذا المقام العظيم الذى هم فيه ، إذا لم تتحرك فيهم دواعى الشهوات [1] ولم تنازعهم الأهواء ، ولم يبلوا البلاء أعظم البلاء فى دفعها . . إلخ » .

(١) لأن الكاتب يؤيد القول بأن هم يوسف ، كان هم فعل ، لا هم ترك .

يوسف يفر من الفتنة هارباً

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ... ﴾

من ثَم ولّى هارباً ينجو من البطشِ المهين ٥٨
أختُ الفجورِ وراءَهُ تعدو كعَدْوِ الطالبين ٥٩

واستبقا الباب . أى توجه الاثنان نحو الباب ـ يوسف وامرأة العزيز ـ يعدوان كأنهما يتسابقان فى حلبة سباق، كل منهما يعدو بكل ما أوتى من قوة، بيد أنهما ليسا متسابقين، بل كان يوسف يعدو هارباً من خطر محدق به فيه هلاكه ديناً وأخلاقاً وشرفاً، لقد فر هارباً يبغى النجاة من ذلك الخطر . . كان الخطر يتمثل فى المرأة الماجنة ، التى أعدت له كميناً: لولا عناية الله تداركته ، لوقع فيه، وعناية الله كانت هى فكرة الفرار.

يوسف الصديق يعدو مسرعاً، متجهاً نحو الباب، والمرأة الفاجرة تعدو بكل قوتها لتلحق به، كأنه خطف شيئاً ثميناً لديها، تريد أن تسترده منه، كانت تود اللحاق به لتبقيه معها فى مخدعها، لا تريد أن تتركه يخرج فلعله ـ لو أبقته معها فى مخدعها ـ يستجيب لرغبتها المشبوبة إما بالتهديد والوعيد، وإما بالإغراء والملاينة ، بيد أنه آثر الفرار ، ذلك لأنها أسرفت فى الاعتداء عليه بالضرب، حتى أوجعته، ولما هم أن يرد العدوان بضربها، آنذاك رأى البرهان . . البرهان الذى تكاثرت وتعددت أقوال المفسرين فى نوعه وحقيقته . . أما نحن فقد رأينا فيه ـ الهم ـ رأيا جريئاً ، نزهنا به يوسف الصديق عن الهم السيئ للأسباب الآتية :

١ ـ أن يوسف الصديق ، نبى ابن نبىّ ، لذلك فلا يمكن أن يصدق الهم بالمعصية .

٢ ـ أن يوسف الصديق قال الله تعالى عنه : ﴿ **إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴾ والشيطان لا سلطان له على المخلصين ، لقد قال الشيطان : ﴿ **قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)** ﴾ [الحجر] .

٣ ـ ويحضرنى فى هذا المقام، قصة المرأة التى حاولت إغراء عبد الله بن عبد المطلب ـ والد النبى ﷺ ـ لقد عرضت نفسها عليه وقالت له : أعطيك المائة بعير التى نحرت فداءً لك . على أن تواقعنى . . . فأبى وعفّ ، فقالت له : أرى فيك « نسك

أبيك » أى أبوك رجل من أهل العبادة والأخلاق ، وأنت مثله .

هذا عبد الله بن عبد المطلب ، الذى لم يكن نبياً ولا ابن نبى ، يأبى أن يأتى هذا العمل ، وأعتقد أن امتناعه هذا لم يكن تديناً ، بل كان ذلك خلقاً وسلوكاً ، لكونه من أسرة شريفة عريقة ، تحرص على الشرف والأخلاق ، ولا غرو فالأسر العريقة من قبائل العرب ، يعتبرون الزنا أسوأ طباع بنى الإنسان ، من ثم فإننى أتساءل ، أيكون عبد الله ابن عبد المطلب ،الذى لم يستمع يوماً إلى كلمة وعظ ، أو حلال أو حرام ، أو جنة أو نار ، أكثر حرصاً وعفة من يوسف الصديق ، سليل بيت النبوة كابراً عن كابر ؟! . . أيعف عبد الله بن عبد المطلب عن الفاحشة ، ويأباها دون تردد ، ويرفض العرض بمائة من الإبل !! ويوسف الصديق يهم بالمعصية ، ويجلس من المرأة الفاجرة مجلس الرجل من امرأته ، ويحل التكة والهميان و . . إلخ ما قالوا ، ولولا أنه رأى البرهان ، أو البراهين المزعومة ، التى لم يكن لها وجود إلا فى خيال القائلين بها ، لارتكب جريمة الزنا مع امرأة العزيز ، يالله !! إنهم ـ أى المفسرون ـ يتحدثون عن يوسف الصديق ، كأنهم يتحدثون عن رجل سوقى ، ونسوا أنه من سلالة عريقة شريفة ، وصفها العلماء بأنها السلسلة الذهبية . ولم لا . . فهل يوجد فى تاريخ البشرية ، من لدن آدم إلى زمن يوسف الصديق ،من يسامى تلك السلالة العريقة ، شرفاً ونسباً ؟! الجواب ، قطعاً لا .

ذلك لأن يوسف ينحدر من جده الأعلى،إبراهيم أبى الأنبياء،وهو خليل الله ، ثم جده الأدنى إسحاق نبى الله،ثم والده يعقوب نبى الله،صلى الله عليهم وسلم أجمعين، والأغرب من هذا كله ،أنهم ينسبون هذه الأقوال الفجة،التى لا يمكن أن يقولها ذو عقل أو علم ، أى ـ البراهين ـ إلى ابن عباس، ترجمان القرآن،وإلى عكرمة وسعيد بن جبير وقتادة وأضرابهم،وهؤلاء علماء السلف الذين نجلهم ونربأ بهم عن قول هذه الترهات، ونقول: ما هى إلا إسرائيليات،نقلها إلينا حاطبو الليل، الشغوفون بكل غريب .

عند الباب كانت المفاجأة

﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَاب ... ﴾

وقميصُه قدَّتْهُ من دُبُرٍ ليهدى الحاكمين ٦٠
وهناك عند البابِ أقْبَل سيّدُ البيتِ الفطين ٦١

لحقت الفاجرة بيوسف عند الباب ، فأمسكته بقوة وجذبته من الخلف ، فتمزق قميصه فى يدها ، فكان هذا التمزق ، دليل براءة يوسف مما اتهمته به المرأة .. وبينما كان الاثنان : يوسف يريد أن يمسك برتاج الباب ليفتحه ، والمرأة تريد أن تحول بينه وبين الوصول إلى الباب ، ذلك لأنها كانت لا تزال تأمل فى إرغامه ، على تنفيذ رغبتها ، واحتوائه ليكون طوع إرادتها .

فى هذه الحالة ، فوجئ الاثنان : يوسف الصديق والمرأة ، بصاحب البيت ، قد فتح باب البيت .. كانت مفاجأة غير متوقعة .. يوسف يعلو محياه الرعب والفزع ، والعرق يتصبب من جبينه حياءً وخجلاً ، فقميصه ممزق ، وجزء كبير من جسده يبدو للعيان ، وأثر الصراع باد عليه ، لا يخفى على من رآه .

﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَاب ﴾ أى فى ذلك الوقت، حضر زوجها ، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿ وَأَلْفَيَا ... ﴾ فوجئ الاثنان بالرجل بعل المرأة ، تقول المرأة لبعلها : سيدى .. ولم يقل القرآن سيدهما ، لأن يوسف عليه السلام ،ما كان مملوكاً لذلك الرجل فى الحقيقة .

قال القرطبى : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَاب ﴾ أى وجد العزيز عند الباب ، وعنى بالسيد : الزوج ، والقبط يسمون الزوج سيداً .

زليخا تلقى التهمة على يوسف

﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) ﴾

قالت له فوراً : لتسمعْنى سماعَ الفاهمين ٦٢
هذا يريدُ السوءَ منى فليكن في الصاغرين ٦٣
فَلْيُلقَ في سجنٍ رهيبٍ فى عدادِ المجرمين ٦٤
أو فلْيَذُقْ طَعمَ العذابِ لأنه فى المعتدين ٦٥

كما كان أثر المعركة بادياً على يوسف، بحيث لا يخفى على من رآه، كانت امرأة العزيز في وضع امرأة أعدت نفسها لارتكاب الفاحشة ، فالملابس شفافة ، كاسية عارية ، متهتكة يبدو عليها هيأة المرأة التى تحللت من الأخلاق ، وخلعت برقع الحياء . . وفى الوقت نفسه تبدو عليها الهزيمة النفسية ، ومن ثم فهى تريد أن تنتقم لنفسها من خصم أهانها .

لما انفتح باب الدار ، ودخل زوج المرأة ـ عزيز مصر ـ ورأى يوسف ورأى المرأة فى وضع ليس طبيعياً ، إن منظر الاثنين يوحى للناظر لأول وهلة ، أن شيئاً ما قد حدث ، وهذا الشيء له علاقة بالشرف .

بيد أن المرأة كانت ذات فطنة وذكاء، ودهاء المرأة الماجنة، فمن ثم لم تخنها فطنتها فى تلك اللحظة الحرجة، فبادرت زوجها قائلة بسرعة ، قبل أن يسرح بأفكاره بعيداً ، وقبل أن يفتح فاه بكلمة قالت : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

فوراً ألقت التهمة على يوسف الصديق ، لقد اتهمته أنه راودها عن نفسها بل حاول اغتصابها والاعتداء على عفتها . . ثم أردفت قائلة لتؤكد روايتها لزوجها: انظر ! إلى فتاك هذا ـ وأشارت إلى يوسف ـ لقد حاول أن يغتصبنى ، فقاومته بكل قوتى ، وقد تمزق قميصه وأنا أحاول الدفاع عن نفسى . . غير أنه لم ينل منى ما أراد .

ثم أردفت قائلة : لذلك أرى أن يلقى فى السجن ، بين المجرمين ليكون عبرة لكل معتبر ، جزاء له على جرأته وتطاوله على سيدته ، ذات الشرف الرفيع ، ثم قال : أو فليعذب عذاباً أليماً ، لكى لا يفكر فى هذا الأمر مرة ثانية .

وهكذا ، لقد تسرعت المرأة فى إلقاء التهمة على يوسف الصديق ، وكان عليها أن تخترع قصة بعيدة عن المعنى ، لكى تبرر لزوجها هذا المنظر : منظر المصارعة والمقاومة الذى تبدو آثاره على الاثنين : يوسف والمرأة .

إلا أن دهاءها قد خانها فى هذا الموقف ، الذى لم تكن تتوقعه . . . لو أنها ذكرت قصة بعيدة عن هذا الموضوع ، لما فكر يوسف فى ذكر القصة الحقيقية .

قال الفخر الرازى فى هذا المقام : «إن حبها الشديد ليوسف، حملها على رعاية دقيقتين فى هذا الموضع ، وذلك لأنها بدأت بذكر السجن ، وأخرت ذكر العذاب ، لأن المحب لا يسعى فى إيلام المحبوب ، وأيضاً أنها لم تذكر أن يوسف يجب أن يعامل بأحد هذين الأمرين ، بل ذكرت ذكراً كلياً ، صوناً للمحبوب عن الذكر بالسوء والألم ، وأيضاً قالت : ﴿ إِلاَّ أَن يُسْجَنَ ﴾ والمراد أن يسجن يوماً أو أقل على سبيل التخفيف ، أما الحبس الدائم فإنه لا يعبر عنه بهذه العبارة ، بل يقال : يجب أن يجعل من المسجونين » .

يوسف يدافع عن نفسه

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾

لكنّ يوسفَ قد أجابَ ، فقال قولَ الصادقين ٦٦
هى روادتنى تطلبُ الفحشاءَ فعْلَ الفاسقين ٦٧
ولقد أبَيْتُ فنالنى ما قد يُرى للناظرين ٦٨
إنى بريءٌ من مقالتِها براءةَ طاهرين ٦٩

كما قدمنا آنفاً ، فإن المرأة ألقت التهمة على يوسف الصديق ، وبقى على يوسف أن يدفع عن نفسه ، وإلا أُخذ بجريمة هو منها براء ، وبالتالى فسوف يكون عقابه قاسياً مؤلما . . ومن المعروف أن يوسف الصديق ، محفوف بعناية مولاه ، ومختار للنبوة والرسالة ، وهو فى الوقت نفسه سليل النبوة .

ولا غرو فمن أخص خصائص الأنبياء والرسل ، البيان ، إذن فيوسف الصديق لا ينقصه القدرة على التعبير ، ليدفع التّهمة عن نفسه .

لما انتهت المرأة من حديثها إلى زوجها ، وقررت فى حديثها أن يوسف حاول اغتصابها . . وقد كان يوسف في الوقت نفسه ، واقفاً فى مكانه ، يسمع ما قالته المرأة عنه حرفاً حرفاً ، لم يَثُر ، لم يقاطعها أثناء حديثها ، بل تركها حتى انتهت .

فلما انتهت كان هو قد هيأ نفسه للدفاع عن نفسه بكلام محدد ، هو الحق ولا شىء غير الحق . . ولم يكن فى نيته أن يقول شيئا سواه .

فتوجه يوسف بالحديث فوراً إلى العزيز ، فقال له : هى راودتنى عن نفسى ، أنا بريء من كل ما قالته المرأة عنى ، فهى التى طلبت منى أن أكون خائناً ، ولما أبيت الاستجابة لرغبتها ، انهالت على ضرباً حتى أوجعتنى .

لم يزد يوسف فى دفاعه عن نفسه ، عن هذه الكلمات القليلة ، ولم يكشف للعزيز عن حقيقة الأمر ، وتفاصيل ما فعلته المرأة ، وعن تبذلها وإغرائها له .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى « القصص القرآنى » وإزاء هذا الاتهام الصريح

من المرأة ليوسف ،مع أنها رأس هذه الفتنة ـ لم يجد يوسف بداً من أن يدافع عن نفسه بالحق ، وقد دافعت هى عن نفسها بالباطل ، وفى كلمات قليلة وادعة النور ، قوية قوة الحق،عرض يوسف صفحة دفاعه ومنطق براءته ، ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ هذا أقل ما يمكن أن يدفع به يوسف هذه الفرية التى تفتريها امرأة العزيز عليه. .إنه لم يكشف للعزيز عن محاولاتها العديدة معه ، ولم يحدثه عن إغرائها له ، وعرض مفاتنها عليه . . . إن أدبه العالى يحول بينه وبين أن يفضح امرأة سيده ، وحسبه أن يقف عند حدود هذا الحديث ومعالجته بحكمة،دون الكشف عن جذور المأساة وأبعادها و. . إلخ ما قال » .

قال الفخر الرازى فى هذا المقام : إن المرأة لما ذكرت هذا الكلام ، ولطخت عرض يوسف عليه السلام ، احتاج يوسف إلى إزالة هذه التهمة فقال : ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ وأن يوسف عليه السلام ماهتك سترها في أول الأمر ، إلا أنه لما خاف على النفس، وعلى العرض ، أظهر الأمر .

الشاهد يوجه العزيز على طريقة الاستدلال

﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ ﴾

سمعَ العزيزُ مقالةَ الاثنينِ سمْعَ الفاهمين ٧٠
من ثَم أصبحَ دون شكٍّ فى مقامِ الحائرين ٧١
لكنَّ شاهِدَهم يقولُ ، وكان ذا قولٍ أمين ٧٢

لقد انتهى يوسف الصديق من الحديث إلى عزيز مصر ، بحيث دافع عن نفسه بصدق وإيجاز ، وقد كان العزيز يسمع ليوسف ، وهو مملوء دهشة واستغراباً ، فبينما كان يوسف يقص على مسامعه صورة ما حدث ، كانت الخواطر تدور فى مخيلته بصور متعددة ، وتساؤلات متعددة أيضاً .

بيد أنه قد بدا له من واقع الحال ، أن الجريمة لم تقع بعد ، وأنها لو كانت وقعت قبل ذلك ، لما حدث هذا الذى يراه ماثلاً أمامه .

ولا غرو فعزيز مصر ، رجل لا تنقصه حكمة الشيوخ وفراستهم ، وذلك بحكم موقعه كرئيس لوزراء مصر . . فمن ثم أخذ يدير بصره فى أرجاء الغرفة فاحصاً . . تلك الغرفة التى شهدت صراعاً بين العفة والفجور . . بين الفضيلة والرذيلة . . بين الاستقامة والانحراف . . بين يوسف الصديق وامرأة العزيز . . أحدهما صادق والآخر كاذب .

إن العزيز يدقق النظر فى كل شبر من الغرفة ، بحثا عن أدنى دليل ، يستطيع أن يبنى عليه حكماً ، ثم يلقى نظره على المرأة بملابسها الشفافة ، التى تكاد تنطق بكذبها وافترائها على يوسف ، ثم ينقل نظره على يوسف ، فيراه يكاد يتوارى حياءً وخجلاً مما هو فيه ، يحاول أن يستر ما بدا من جسده ، بعد أن تمزق قميصه .

ويبدو أن العزيز عرف الحقيقة من واقع الحال الماثل أمامه ، فالمرأة أمامه بملابس شفافة ، كاسية عارية ، ووقاحة وجرأة ، أدلة على مجونها وجرمها .

بيد أن العزيز لم يجد الشجاعة لإعلان الحقيقة بنفسه، فأراد أن يشرك معه رجلاً ، ذا عقل وحكمة ، فى الرأى ، وهذا الرجل من أقارب المرأة ، لقوله تعالى ﴿ وَشَهِدَ

﴿ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ فتناقشا معاً فى هذا الأمر ، فقال الرجل : إن الدليل يكمن فى قميص يوسف الممزق ، فلننظره ، ومن ثم فلن نجد صعوبة فى الاهتداء للحقيقة .

فإن كان القميص ممزقاً من الأمام ، فهذا شىء طبيعى ، أنها هى التى مزقته ، دفاعاً عن شرفها وحينئذ تكون هى صادقة وهو كاذب ، وإن كان القميص ممزقاً من الخلف ، فهى التى مزقته أيضاً ، لأن الفتى قد فر هارباً أمامها ، فلحقته فأمسكته من قميصه من الخلف ، فتمزق القميص ، وفى هذه الحالة تكون هى الكاذبة وهو الصادق .

قال الفخر الرازى فى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ ليكون أولى بالقبول فى حق المرأة ، لأن الظاهر من حال من يكون من أقربائها أو من أهلها ، ألا يقصدها بالسوء والإضرار ، فالمقصود بذكر ذلك الرجل من أهلها ، تقوية قول ذلك الرجل ، وهذه الترجيحات ، إنما يصار إليها عندما تكون الدلالة ظنية ، ولو كان هذا القول صادراً عن الصبى الذى فى المهد ، لكان قوله حجة قاطعة ، ولا يتفاوت الحال بين أن يكون من أهلها ، وبين ألا يكون من أهلها ، وحينئذ لا يبقى لهذا القيد أثر .

الاختلاف فى شخصية الشاهد

﴿وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧)﴾

إنّ القميصَ هو الدليلُ ، لتنظروه كباحثين ٧٣
إنْ كان قُدّ من الأمام فإنه فى الكاذبين ٧٤
أو قُدّ من خلفٍ فيوسفُ صادقٌ هذا يقين ٧٥

لا شك أن الدليل الأكيد ، فى هذه القضية ، هو قميص يوسف الممزق ، وقد نطق الشاهد الوحيد بهذا !

ولقد تكاثرت الآراء والأقوال عن هذا الشاهد ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ أول هذه الأقوال هو حديث شريف ، ينص على أن ذلك الشاهد ، كان طفلاً فى المهد .

عن ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال : « تكلم أربعة وهم صغار : ابن ماشطة فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى بن مريم . . » رواه أحمد وابن جرير والبيهقى .

إن صح هذا الحديث،فهذه بغير شك معجزة . . وفى هذه الحالة يبطل الاجتهاد ، غير أن العلماء لم يكتفوا بهذا . . فأدلى كل منهم برأيه وتصوره عن ذلك الشاهد .

قال القرطبى : هو رجل حكيم ذو عقل ، كان الوزير يستشيره فى أموره ، وكان من جملة أهل المرأة ، كان مع زوجها فقال : قد سمعت الاستبدار والجلبة من وراء الباب ، وشق القميص ، فلا أدرى أيكما كان قدام صاحبه ، فإن كان شق القميص من قدامه فأنت صادقة ، وإن كان من خلفه فهو صادق .

قال ابن كثير : وقد اختلفوا فى هذا الشاهد ، هل هو صغير أو كبير على قولين للعلماء من علماء السلف ، فقال عبد الرزاق : أخبرنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس في ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ قال : ذو لحية ، وفى قول آخر عن ابن عباس ، كان من خاصة الملك،وقول : كان ابن عمها ، وقول : إنه كان من أمر الله ، ولم يكن إنسيا . . وهذا أغرب ما قيل .

قال القاضى بيضاوى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ قيل : ابن عمها ، وقيل : ابن خالها ، وكان صبياً فى المهد ، وعن النبى ﷺ ، تكلم أربعة صغار : ابن ماشطة فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج وعيسى بن مريم عليه السلام ، وإنما ألقى الله الشهادة على لسان أهلها ، ليكون ألزم عليها .

الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه «القصص القرآنى» يختلف عن كل السابقين، وينفرد برأى لم يقل به أحد . . فهو يقرر أن الشاهد فى قوله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ هو العزيز نفسه ، ويدلل على هذا بقوله : ولا تنظر لما قيل من أن العزيز استدعى أهل الرأى والحكمة فى دولته وأخذ رأيهم فى هذا الحدث . . فإن ذلك عمل لا يعمله عاقل أبداً ، فيفضح نفسه وأهله على الملأ . . ولا تنظر كذلك إلى ما قيل من أن طفلاً فى المهد نطق ببراءة يوسف،وشهد بأنها هى التى راودته ، فما كان الأمر محتاجاً إلى هذه المعجزة المتحدية ، وجسم الجريمة ـ كما يقولون ـ ماثل للعيان !!

العزيز يوجه التهمة لجنس النساء جميعا

﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

وجَدُوهُ من خَلْفٍ تمزَّقَ إثرَ عدوانٍ مُبين ٧٦
عَرَفَ العزيزُ بأن يُوسُفَ لم يكنْ فى الخاطئين ٧٧

هذا عزيز مصر والشاهد معه ، يفحصان قميص يوسف الصديق ـ المفترى عليه ـ يفحصان قميصه ليتبينا فيه الحقيقة الضائعة . . الضائعة بين امرأة ماجنة تدعى زوراً وبهتاناً على شاب برىء ، أنه حاول اغتصابها ، وبين يوسف الذى نفى عن نفسه التهمة ، وواقع الحال أيد نفيه ، وأكد براءته .

وبإلقاء نظرة على القميص ، وُجد أنه قُدّ من دُبر . . إذن فقد وضح الأمر ، وكُشفت الحقيقة تماماً أمام العزيز .

عرف العزيز أن يوسف صادق وعفّ أيضاً . وأن المرأة هى الكاذبة فى دعوتها . ولم يبق أمامه سوى أن يتخذ القرار المناسب ، فى هذا الموقف الخطير ، الذى قد يُعرض بيت العزيز لعاصفة تزلزل أركانه ، إذا لم يكن ذاك القرار حكيماً .

اتجه العزيز إلى المرأة التى ثبت لديه خيانتها ، وقبل أن ينطق بأى كلمة ، صمت قليلاً ، إنه يفكر فى الأمر . . تُرى فى أى نوع من أنواع القرارات ، يفكر العزيز بشأن المرأة الخائنة ؟! هل يفكر فى طلاقها ، لكونها فكرت فى خيانته ، ولولا عفة يوسف ونزاهته ، لتلطخ شرف العزيز فى الوحل ؟! أم تراه يفكر فى قتلها ، لتكون عبرة لكل امرأة تفكر فى خيانة زوجها ؟!

أم تراه سيأمر بعزلها ـ وهذا أيسر الأمور ـ فى جناح من أجنحة القصر ، تأكل وتشرب فقط ، ولا صلة لها بسيد البيت . . تظل معذبة بالهجر والحرمان مدى الحياة ؟!

تمخض الجبل فولد فأراً !!! أخيراً نطق العزيز بحكمة لقمان !!! فقال للخائنة : ﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ يالله !! يبدو أن العزيز قد سكن غضبُه أثناء فترة صمته ، فلم يواجه المرأة بجريمتها ، بل وجه التهمة لبنات جنسها كلهن ، وكأنه أشفق على المرأة من أن تغضب !!!

قال الأستاذ أحمد بهجت فى كتابه «أنبياء الله» : نسب ـ العزيز ـ ما فعلته المرأة إلى كيد النساء عموماً ، وصرح بأن كيد النساء عموماً عظيم ، وهكذا سيق الأمر كما لو كان ثناء يساق .

ولا نحسب أنه يسوء المرأة أن يقال لها : ﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ﴾ ، فهو دلالة فى حسها على أنها أنثى كاملة ، مستوفية لقدرة الأنثى الكاملة على الكيد .

العزيز يأمر يوسف بكتمان الأمر

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾

من ثَمَّ قال لَهُ : فَكُفَّ عن الحديثِ لآخَرين ٧٨
اكتمْ لهذا الأمرِ ، لا تذكُرْه للمتساءلين ٧٩
وإلى زُلَيْخَا قال قولاً فى هُدوءِ اللائمين ٨٠
فاستغفِرى مما جَنَيْتِ فذاك فِعْلُ الماجنين ٨١

ها نحن أولاء لا نزال مع العزيز ، وقد أصدر قراره الذى جاء مخالفاً لكل ما يتصوره إنسان !!! فقال ليوسف : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ إنه يأمر يوسف بكتمان هذا . . !! لا تذكر هذا الأمر لأحد يا يوسف ، وانس ما حدث تماماً .

ثم عاد بالحديث إلى المرأة ، وكأنه يستدرك حديثه السابق إليها ، أنه كان ليّنا ، إذن فليوجه اللوم لها،لكى لا يتهمه الآخرون بالضعف أمام امرأته . فقال لها: ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ .

يالله!! أهذا يكون حديث رجل لامرأته،بعد أن اكتشف خيانتها له؟! هذا بغير شك يدل على أن العزيز كان بليد الطبع ، ليس فيه حرارة الرجال ، الذين يثورون عندما تنتهك حرماتهم ، أو يعتدى على شرفهم . . ولنستمع إلى ما قاله علماء التفسير عنه .

« قال ابن كثير: ﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ﴾ يقول لامرأته وقد كان ليّن العريكة سهلاً ، أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه » .

« قال الأستاذ رشيد رضا فى تفسيره «المنار »:وقد استدل الكرخى بقول هذا الوزير لزوجه ، على أنه كان قليل الغيرة . . ثم قال : وزعم أبو حيان فى « البحر المحيط » أن هذا مقتضى طبيعة تربة مصر وبيئتها ، وأنها لرخاوتها لا ينشأ فيها الأسد، ولو دخل فيها لا يبقى، وهذا كلام غير مبنى على علم صحيح، فأما سبب عدم نشوء الأسد فى هذا القطر ، فهو خلوّه من الغابات والأدغال التى يعيش فيها ، وأما كونه إذا أدخل لا يبقى ، فإن صح بالتجربة فى الماضى ، فسببه عدم وجود المأوى له . . وها نحن أولاء

نرى الأسود والفهود والنمور ، تعيش وتتناسل فى حديقة الحيوان بالجيزة . . ».

« قال القرطبى : وقيل : إن القائل ليوسف : أعرض ، ولها استغفرى، زوجها الملك ، وفيه قولان : أحدهما ـ أنه لم يكن غيوراً ، فلذلك كان ساكنا ، وعدم الغيرة فى كثير من أهل مصر موجودة . الثانى ـ أن الله تعالى سلبه الغيرة ، وكان فيه لطف بيوسف، حتى كُفى بادرته وعفا عنها » .

قال الفخر الرازى : ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ نسبة لها إلى أنها كانت كثيرة الخطأ فيما تقدم، وهذا أحد ما يدل على أن الزوج عرف فى أول الأمر، أن الذنب للمرأة لا ليوسف ، لأنه كان يعرف عنها إقدامها على ما لا ينبغى.

قال أبو بكر الأصم: إن ذلك الزوج كان قليل الغيرة ، فاكتفى منها بالاستغفار .

وقال صاحب الكشاف : وإنما قال ﴿ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ تغليبًا للذكور على الإناث ، ويحتمل أن يقال : المراد أنك من نسل الخاطئين ، فمن ذلك النسل ، سرى هذا العرق الخبيث فيك . والله أعلم.